النقد الأسلوبي

إنّ المتتبع لميلاد علم الأسلوب أو الأسلوبية Stylistiques يجد أنّه ظهر إثر الثورة التي أحدثتها اللسانيات مع رائدها دي سوسير مطلع القرن العشرين، وذلك حين استطاع الدرس اللغوي التأثير على حقل الأدب (كون النص الأدبي في حقيقته يمثل بنية لغوية) فظهر هذا العلم ليكون حلقة وصل بين الأدب واللغة مع رائده الألسني شال بالي، دوره «تحديد الخصائص والسمات الجمالية بالاعتماد على الألسنية وبحوثها».

مفهوم الأسلوب: الأسلوب Style مأخوذ من الكلمة اللاتينية Stilus والتي تعني الأزميل والمنقاش، استعملت مجازا للتدليل على الحفريات التي لم تكن سوى الكتابة نفسها، كما تعني الأثر وتعني الريشة أو القلم أو أداة الكتابة، انتقلت هذه الكلمة من معناها الأصلي الخاص بالكتابة واستخدمت في فن المعمار ونحت التماثيل، لتعود مجددا إلى حقل الدراسات الأدبية وتعرف على أنّها «ترابط منطقي وشكلي متناسق لأنواع عامة متعددة داخل عمل خاص/ انحراف عن النمط وانتهاك له».

أمّا في معاجمنا العربية فيقال للسطر من النخيل أسلوب، وكلّ طريق ممتد أسلوب...والأسلوب الطريق والوجه والمذهب...يقال: هم في أسلوب سوء ويجمع أساليب وقد سلك أسلوبه: طريقته، وكلامه على أساليب حسنة، ومن المجاز أسلوب الشموخ في الأنف. والأسلوب بالضم: الفن يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه.

نلمس من هذا التعريف أنّه يحمل مدلولين الأول مادي وهو الطريق المستقيم، والثاني فني حين ربط الأسلوب بالقول.

والأسلوب من الناحية الاصطلاحية كان له الحظ الأوفر عند النقاد العرب خاصة فيما ارتبط بالإعجاز القرآني، غير أنّ النقاد الأوائل رغم وقوفهم عند هذا المصطلح لم يقدموا له تعريفا واضحا ودقيقا، إنّما تطرقوا له في سياق حديثهم عن بلاغة القرآن، ويعد عبد القاهر الجرجاني أول من وضع حدّا لهذا المصطلح في قوله «والأسلوب الصرب من النظم والطريقة فيه»؛ ويحيل هذا التعريف إلى أنّ الجرجاني قد ربط بين النظم والأسلوب وبالتالي فكل ما تطرق إليه حول نظرية النظم(منهج يسعى نحو ربط الكلام بعضه ببعض، أو هو تأليف الكلام وفقا لأبواب النحو المختلفة والالتزام بها، الأمر الذي من شأنه أن يعزز قيمة تركيب الجملة من خلال مراعاة الروابط بين الجمل، ويعرفه ابن قتيبة بأنه سبك للألفاظ، وضمها إلى بعض في نظام يتآلف فيه اللفظ مع المعنى) فهو ذات علاقة بالأسلوب وإن لم يقصد الحديث عنه، وقد استفاد

الزمخشري من نظرية النظم عند الجرجاني وربطه بالأسلوب فعرفه على أنّه أوجه التخاطب في قوله «وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد».

من هذه التعريفات والإشارات استطاع البلاغيون العرب أن يقفوا عند وضع حدّ أدق لمصطلح الأسلوب من خلال اطلاعهم على ما جاء به الجرجاني في باب الإعجاز القرآني، وقذ نجح حازم القرطاجني في إدراك قيمة الأسلوب وخصص له القسم الرابع والأخير من كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء وجعله مقابلا للنظم وحصره في إطار المعنى حيث يقول «ولما كان الأسلوب في المعاني بإزاء النظم في الألفاظ وجب أن يلاحظ فيه من حسن الإطراد والتناسب والتلطف في الانتقال من جهة إلى جهة والصيرورة من مقصد إلى مقصد ما يلاحظ في النظم من حسن الاطراد من بعض العبارات إلى بعض ومراعاة المناسبة ولطف الثقلة».

مفهوم الأسلوبية:

إنّ المتتبع لمصطلح الأسلوبية يجد أنّ جذرها اللغوي ينقسم إلى قسمين هما الأسلوب style ولاحقته ique (يّة) فأمّا الأسلوب فيعني «قوام الكشف لنمط التفكير عند صاحبه»، وهو مصطلح ذو مدلول إنساني ذاتي واللاحقة لها بعد علمي عقلي وبالجمع بينهما يتطابق مفهوم الأسلوبية مع علم الأسلوب Science de style ويعرّف بأنه الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب، أمّا من الناحية الاصطلاحية فيجد الباحث صعوبة في تحديد مفهوم الأسلوبية نظرا لتشعب ميادينها وتداخل الحقول التي نشأت في كنفها فهي متصلة باللغويات لاهتمامها باللغة ومتصلة بنظرية الأدب إذا ما افترضنا أنّها تشمل دراسة الأسلوب في الأعمال الأدبية، وهي جامعة للحقلين بصفتها أوّل ملمح من ملامح صلة اللسانيات بعلم الأدب وهذا ما صعب تحديد تعريف موحد لها فكلّ يعرفها من زاوية الحقل الذي ينتمي إليه، فهي عند عند علماء اللغة «فرع من اللسانيات الحديثة، مخصص للتحليلات التفصيلية للأساليب الأدبية أو للاختيارات اللغويّة التي يقوم بها المتحدثون والكتاب في السياقات الأدبية وغير الأدبية» بمعنى أنّها تقوم على التحليل اللغوي للكشف عن القيم الجمالية الموجودة في النص، فطول الجملة أو قصرها وغلبة الأفعال فيها أو الأسماء واستخدام الحروف بطرائق معينة ودراسة الأوزان ودلالتها هو مجال بحث الأسلوبية.

أمّا من منظور النقد الأدبي فهي «علم وصفي يعني ببحث الخصائص والسمات التي تميّز النص الأدبي».

اتجاهات الأسلوبية:

أصبح مصطلح الأسلوبية علما قائما بذاته في عصرنا الحديث ومرتبطا بالدراسات اللغوية التي قام بها دي سوسير والذي فتح المجال لمن جاء بعده لتأسيس هذا المنهج فكان شال بالي Charles Bally أوّل من أرسى قواعد هذا العلم في **أسلوبيته التعبيرية** عندما وصفها «بالعلم الذي يدرس وقائع التعبير اللغوي من ناحية محتواه العاطفي، أي أنّ التعبير عن وقائع الحساسية الشعورية من خلال اللغة وواقع اللغة عبر هذه الحساسية»، والملاحظ هنا أن شال بالي اهتم باللغة العادية العفوية التي لا نختار فيها الكلمات إنّما العرف والعادة تقتضي ذلك إلى جانب التركيز على المحتوى العاطفي ما يعني إهمال القيمة الجمالية.

غير أنّ من جاء بعد شال بالي أدرك أنّ علم الأسلوب هو جسر اللسانيات إلى تاريخ الأدب وبذلك بدأ الاهتمام بكل ماهو أدبي مع الأدبية التي تبناها كارل فوسلير Karl Vossler وليوسبيتزر، هذه المدرسة تنطلق من إبداع الفرد وروح المؤلف لا من الجماعة، من اللغة الأدبية لا من اللغة العادية وبالتالي فإنها ترى أنّ النقد يكون من داخل النص والعمل الأدبي هو الذي يمدنا بمعايير تحليله فلكل مؤلف لغة خاصة تعكس شخصيته تكون بمثابة جوهر النص، لابد للمحلل الانطلاق منها دون العودة إلى الظروف الخارجية.

هذه المبادئ التي قامت عليها مدرسة ليوسبيتزر أسهمت في تمخض أسلوبية جديدة سميت بـ **الأسلوبية البنيوية**، والتي تقوم أبحاثها على رصد ما يحمله النص من تجاور مفرداتها وتراكيبها وبالتالي فهي تعتبر أنّ النص معبّر عن ذاته دون العودة إلى محيطه الخارجي.

ميشال ريفاتيير وهو زعيم المدرسة بحق انتبه إلى أنّ مثل هذه التحليلات أحدثت قطيعة مع المتلقي لاشتغالها على الخطاب، بالتالي ركز على توجيه العلاقة بين الخطاب والمتلقي من خلال الانطلاق من التحليل الوصفي كمرحلة أولى وصولا إلى مرحلة التفسير والتأويل التي يظهر فيها دور المتلقي بشكل بارز؛ أي أنّها تمكن القارئ من إدراك انتظام خصائص الأسلوب الفني إدراكا نقديا مع الوعي بما تحققه تلك الخصائص من غايات وظائفية.

الأسلوبية في النقد العربي الحديث:

لقد كان لاحتكاك الثقافة العربية بغيرها من الثقافات الأثر البارز في الاهتمام أكثر بالأسلوب والبحث الأسلوبي، حيث اتخذ منحيين اثنين أين ربط البعض الأسلوبية بالدراسات اللسانية الحديثة متأثرين بالرؤية الغربية لهذا المفهوم في حين يرى البعض الآخر أنّ هذا المصطلح وإن كان حديث النشأة فإن له جذور في التراث العربي وإن لم يحمل هذا الاسم، غير أنّ دراستهم عموما قامت مرحلتين التأسيسية والتطبيقية.

فأما التأسيسية فهي التي خاضت في رسم حدود الأسلوبية ومساراتها عند العرب، والوقوف أمام مختلف مستويات البحث الألسني الحديث وتطوره، ومن أهم رواد هذه المرحلة: عبد السلام المسدي، صلاح فضل، شكري عياد، محمد الهادي الطرابلسي... أمّا التطبيقية فحاولت إبراز إمكانيات التحليل الأسلوبي في العملية النقدية.

الأسلوبية من منظور عبد السلام المسدي:

يعد عبد السلام المسدي من النقاد العرب الذين اهتموا بالدرس الأسلوبي وبرزوا فيه، إذ يعدّ كتابه الأسلوب والأسلوبية الصادر سنة 1977 من أقدم المباحث العربية في تقديم المفهوم الأسلوبي وأصفاها وضوحا وأثراها معرفة، فقد تميز بفهمه الدقيق للأسلوبية الحديثة متجاوزا المنظور التقليدي لمن سبقوه محاولة منه بسط مشروع طموح لوضع التحليل الألسني في موقع متقدم في الفعالية النقدية العربية، غير أنّ الملاحظ على الناقد في سنواته التالية أنّه لم يتوقف عند منهجية أسلوبية واحدة إنّما حسب ما يفرضه عليه النص المدروس، فنجده أحيانا يطبق أسلوبية بالي التعبيرية وأحيانا أسلوبية ريفاتيير ومرة يستند علة منهج جاكبسون...وهذا ما يلفت التصور العميق للباحث في المجال النظري وتتضح هذه الفكرة أكثر من خلال الوقوف على تحليله لقصيدة ولد الهدى لأحمد شوقي ضمن جزئه الأخير من كتاب النقد والحداثة والمعنون بالتضافر الأسلوبي في قصيدة ولد الهدى.

ملاحظة: تم إرفاق المحاضرة بمقال حول دراسة المسدي الأسلوبية لقصيدة ولد الهدى، يرجى الاطلاع على العنصر الثالث من المقال.